

## المذوا بحزنه في تاريخ الاسلام

« لما اذا تأملت التكبات على المسلمين ؟ . . . إن  
التاريخ أصدق ناطق فستنبوه . . . لقد كان العرب  
قبل الاسلام هملاين الناس . لا يقام لهم عند الشعوب  
ميزان ، جاء الاسلام فجعلهم الفاتحين السادة القادة  
الذين رفضوا لواء الاسلام في المشارق والمغارب ،  
حما أدهش وحير وأسر ، لقلة الزاد عند المسلمين  
والعتاد والعدد ، مع كثرة الأعداء وتشب الأنحاء ،  
ولقصر الوقت وسرعة التقدم ، وما نجحوا إلا لأنهم  
أصبحوا بنعمة الايمان رجال دعوة وأصحاب مبدأ ،  
يرضون عن الدنيا إلى الآخرة ، ويرضون الله أولا  
واخيرا ، ويعملون هداية المسلمين بنفوس مؤمنة ،  
وارواح تهب إلى لقاء الله كما يهفو الضال إلى مثواه ،  
فليسوا طلاب شهوة أو مجد ، ولصكهم طلاب  
شهادة .

وما ضغف المسلمون وذلوا إلا يوم فقدوا الايمان  
والزهد والجهاد وحب الشهادة ، ولن يبرقوا طريق  
المرتبة إلا باستعادة هذه الصفات » .

## المد والجزر في تاريخ الاسلام

كان العرب قبل الإسلام أمة كادت تكون خاملة منعزلة عن العالم ، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعصور البحار من ثلاث جوانب ، وصحراء من جانب وكانت من الانحطاط والانقسام والضعف والخلول بمكان لا تطلع فيه حيناً من الدهر إلى غزو البلاد ، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لها في المتنام ولا تحدث به نفسها يوماً من الأيام .

هذا ، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم ، وزعيمتا الشرق والغرب ، وقد أحاطت بملكاتها بشبه جزيرة العرب إحاطة الثوار بالمعصم ، وإنما زهد الفرس والرومان في فتح هذه الجزيرة وعورتها ، وقلة خيراتها ومواردها ، وما يكلفهم ذلك من رجال وأموال ، هم في غنى عن إنفاقها في هذه الصحراء المجردة ، وفي هذه الأمة الفقيرة ، وإنما اكتفوا برقابتهم السياسية عليها ، وإماراتهم التي أنشأوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولهواتها .

هكذا كانت هذه الأمة التي كانت لتمثل دوراً مدهشاً في تاريخ العالم عن قريب ، كانت أمة بدوية موهوبة ولكن مواهب ضائعة - لا يرفع الناس بأفرادها في العراق والشام ومصر رأساً ، إذا مروا بهم تجاراً أو ممتازين ولا يحسبون لهم حساباً . ولا يهمهم شأنهم إلا ما يهم أهل المدن شأن الأعراب المستغربين في اللباس والصورة واللسان ، ولا يذكرونهم - إذا ذكروهم - إلا بذلاقة لسانهم وضاحة منطلقهم وشجاعتهم ، وجودة خيلهم ووفائها ، إلى غير ذلك مما قد تعرفه الأمم المتقدمة عن الأمم البدوية .

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند أهل العالم ، قبل الإسلام والنظرة التي كان ينظر إليهم بها جيرانهم في الشرق والشمال فاستعرض الآراء التي أبداءها رجال ذلك العصر من أهل البصر والمعرفة ، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها . فلما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء : ما قال امبراطور الدولة الفارسية - خسروا المسلمين .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ، بعد ماساق حديث رسل المسلمين في مجلس يزدرجرد .

قال : « فتكلم يزدرجرد فقال : إني لا أعلم في الارض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نוכל بكم قرى الضواحي ليكفوناكم ، لاقتزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم . فإن كان عددكم أكثر فلا يغرنكم منا . وإن كان الجهد دهاكم ، فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم ، .

فقال المغيرة بن شعبه :

« أيها الملك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما . فأما ما ذكرت من سوء الحال : . فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا : فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، ونرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فأنما هي ظهر الارض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديقنا أن يقتل بعضنا بعضا ، وإن يبغي بعضنا على بعض ، وإن كان أحدا ليدفن ابنته وهي حية ، كراهية أن تأكل من طعامه وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا الخ (١) ،

وجاء في هذا الكتاب أيضا :

« قد بعث أمير الفرس يطلب رجلا من المسيئين ليكلمه . فذهب إليه المغيرة ابن شعبه - فذكر من عظم ما رأى عليه من لبسه ومجلسه وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهائته بهم وانهم كانوا أطول الناس جوعا وأقلهم دارا وقلرا - وقال : وما يمنع هؤلاء الاساورة (٢) حولى أن ينظموكم بالنشاب إلا بما من جيفكم ، فإن تذهبوا نخل عنكم وإن تأبوا نذركم مصارعكم . قال . فتشهدت وحمدت الله ، وقلت : لقد كنا أسوأ حالا مما ذكرت حتى بعث الله رسوله الخ (٣)

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٢

(٢) الاسوار والاسوار عند الفرس : القائد ، أساور واساورة

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٩

وفي هذا الكتاب أيضا :

ذكر الوليد بن مسلم : ان ماهان طلب خائدا ليرز اليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة ، فقال ماهان : لانا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فلهوا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاما ، وترجعون إلى بلادكم . فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها (١)

وهذا كله يدل على ما كان يساوى العرب عند الروم ، وعلى ما كان لهم من قيمة ومنزلة عندهم

ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال وانقلبت الحقائق وبطلت التجارب السابقة وقاه العقل ، إذ خرج هؤلاء الأعراب من صحرائهم يفتحون ويقهرون ويغلبون ويخضعون ، تدفق هذا السيل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عاصمة العرب الإسلامية ، لاحدى عشر سنة للهجرة النبوية واثنين وثلاثين وست مائة لميلاد المسيح ، فغلب كل شيء اعترضه في الطريق وطأ على السهل والجبل ولم تكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف الشاكية السلاح ، الشديدة البطش التي كانت الارض تزلزل بها زلزالا ، لم تكن هذه الجنود المجندة لإحشائش في هذا التيار الجارف ، فلم تقم سيره ولم تقهر مجراه ، حتى قاض في مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس وديوح مصر والمغرب الأقصى وأودية هملايا ، سال هذا السيل القوى بالمدينيات العتيقة والحكومات المنظمة القوية ، والامم العريقة في المجد والسلطان فأصبحت خيرا بعد عين ( وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق )

خرج العرب من جزيرتهم فاحتكوا بالفرس والروم ، وكان العرب يكرهون وجوعهم (٢) ويكرهون سطوتهم في ديارهم ، ولكن هانوا عليهم في هذه المرة فغزواهم في عقر دارهم ، ونزلوا بساحتهم ، فالبشوا أن مزقوا جوعهم شر ممزق

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠

(٢) قال الطبرى : عندما اراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون ان يماربهم ؟ وكان وجه فارس من اكره الوجوه اليهم واقتلها عليهم ؟ لقد سيطر عليهم وشوكتهم وعزهم وفهرم الامم ( تاريخ الطبرى ج ٤ : ٦١ )

وثلوا عروشهم ، ووطأوا تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم وسبوا ذراريهم ، ومزقوا رداء نجرهم وعظمتهم فلم يرفع أبداً ، وكسروا شوكتهم فلم تعد أبداً ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده ( واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها )

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم في ثياب صفيقة مرقعة ، ونعال وضيعة مخسوفة يتقلدون سيوفاً بالية الأجفان رثة المحامل ، على خيل بعضها عارية الظهور متقطعة الغرز ، قد بلغ بهم العدد عن المدينة إلى حد أنهم كانوا يحسبون الكافور ملحاً وربما استعمله بعضهم في المعجن (١) فما لبثوا أن ملكوا الدنيا ، وامتلكوا ناصية أم بعيدة الشأو في المدينة . انقلب رعاء الشاة والأبل رعاة لأرقى طوائف أنبش في العلم والمدينة ، والنظام وصار هؤلاء اساتذتهم في العلوم والآداب والأخلاق والتهذيب ، وحققت كلمة الله ( ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ) .

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الخمود العجيب ، وهذا الانتباه السريع بعد ذلك السبات العميق ، لغزة من الغاز التاريخ وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن هذا الحادث أغرب ما وقع في التاريخ الانساني ، وإليك بعض ما قاله المؤرخون الاوربيون .

يقول المؤرخ جبون : « بقوة واحدة وبنجاح واحد زحف العرب على خلفاء اغسطس ( في الروم ) واصطخر ( في فارس ) واصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما ، في عشر سنوات من أيام حكم عمر اخضع العرب لسلطانه ستاً وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع ، خربوا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين ، على رأس قرن من هجرة محمد ﷺ من مكة امتد

---

(١) قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بهض تلك الدور ، فيجدون البيت ملاناً إلى اعلاه من اواني الذهب والفضة ، يجدون من الكافور شيئاً كثيراً فيحسبونه ملحاً ، وربما استعمله بعضهم في المعجن فوجدوه مراحيً تبيوا امره ( البداية ج ٧ ص ٦٧ )

سلطان خفائه من الهند الى المحيط الاطلانكي ؛ وترفرف علم الاسلام على اقطار  
مختلفة نائية : كفارس وسورية ومصر وافريقيا واسبانيا (١)

ويقول ستودارد الاميركي في كتابه حاضر العالم الاسلامي : « كاد يكون نبأ  
نشر الاسلام النبأ الاعجب الذي دون في تاريخ الإنسان ، ظهر الاسلام في أمة  
كانت من قبل ذلك العهد متضعضة اليكان وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على  
ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، زفأمالك عالية الذرى مترامية  
الاطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس  
الأمم والاقوام وبانيا عالما حديثا مقراص الأركان - هو عالم الإسلام

كلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب  
العجاب بهرا ، فارتدنا عنه بأطراف حاسرة . عرفنا أن سائر الأديان العظمى  
إنما نشأت ثم انشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ملاقية كل صعب ، حتى كان أن  
فيض الله لكل دين منها ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر اتحل ذلك  
الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه ، حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه ، بطل  
النصرانية قسطنطين ، والبوذية واسوكا ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم ملك  
جبار أيد دينه الذي اتحله بما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك  
في الإسلام ، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل  
الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكااة والمنزلة في التاريخ ، فليسرعان ما شرع  
يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض مجتازا أفدج الخطوب واصعب  
العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ؛ ولا أزر مشدود  
وعلى شدة هذه المكاه فقد نصر الاسلام نصر مبينا عجيبا ، إذ لم يكذبمضى على  
ظهوره أكثر من قرنين ؛ حتى باقت راية الاسلام خفاقة من البرانس ، حتى  
( مـلـاـيا ) ومن صحارى أواسط آسية حتى صحارى أواسط أفريقيا (٢)

ويقول مؤرخ عصرى ( هـ ، ا ، ل فبشر ) في كتابه تاريخ أوروبا : « ولم يكن

( ١ ) المخطاط رومة وسقوطها المجلد الخامس من ١٧٤ - ١٧٥ طبع الكسفورد .

( ٢ ) حاضر العالم الاسلامى ج ١ تعريب الاستاذ عجاج نويهض مقدمة في نشوء الاسلام

هناك ( في جزيرة العرب قبل الاسلام ) از لحكومة عربية أو جيش منتظم أو لطموح سياسي عام ، كان العرب شعراء خياليين ؛ محاربين ؛ وتجاراً ، لم يكونوا سياسيين إنهم لم يحددوا في دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم ، انهم كانوا على نظام منحط من الشرك ؛ بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة ، إنهم فتحوا سورية ومصر ، ودوخرا وقزوين فارس ماكوتر كستان الغربية وجزءاً من بنجاب إنهم انتزعوا أفريقية من البازنطيين والبربر وأسبانيا من القوط هددوا فرنسا في الغرب والقسطنطينية في الشرق مخرت أساطيلهم المصنوعة في الاسكندرية ومواني سورية مياه البحر المتوسط اكتسحت الجزائر اليونانية وتحدت القوة البحرية الامبراطورية البازنطينية لم يقاومهم إلا الفرس وبربر جبال الاطلس ، إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صوب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضاً عثمانياً لاسيطرة فيه لغير الترك ووجدت الدول النصارانية من اقصى أوروبا الى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي ، ( )

ويقول مؤلف اشترأكي : د ان الانسان ليدهش إذا تأمل السرعة الغربية التي تغلب بها طوائف صغيرة من الرحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) حتى غرز أتباعه هلم الفتح على حدود الهند في في جانب ، وعلى ساحل البحر الاطلانطيكي في جانب آخر ، إن خلفاء دمشق الاولين حكموا على امبراطورية لم تكن لتقطع في أقل من خمسة اشهر على اسرع جمل على نهاية القرن الاول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم .

كل نبي جاء بمعجزات آية لما يقول ، وبرهاناً على صدقه وليكن محمداً ﷺ هو أعظم الانبياء واجلهم إذ كان انتشار الاسلام أكبر آيات الانبياء وأروعها إعجاباً وخرقاً للعادة ، إن امبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها

تراجان نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون واسكنها لانساوى المملكة العربية التي أسست في أقل من قرن ان امبراطورية الاسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات (١) والآن ننظر في هذا الحادث الغريب نظراً علياً تحليلياً ونبحث عن اسبابه الحقيقية.

الجنود والدول في هذا العالم المادى تغلب الجنود والدول في الغالب لوفرة عددها ، أو بزيادة عدتها وعتادها ولأنها احسن في الشكّة والسلاح وفي التنظيمات العسكرية وفائقة في النظام الحربى ؛ فتناول جميع هذه العلل المادية التى يرجع اليها الفضل في اقتصار الجيوش والدول عامة ونبحث فيها علة علة :

أما العدد فمعلوم انه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين في العدد في جميع المواقف الحاسمة والمعارك الفاصلة في كفاح الاسلام والنصرانية والمجوسية وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع. هذه البرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم الى مائة ألف وثمانين ألفاً وفي رواية مائتى ألف وفي رواية أربعين ومائتى ألف وأقل ماروى عن عددهم عشرون ومائة ألف وأكثر ما ذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعاً وعشرين ألفاً كذلك كانت النسبة بعيدة في وقعة القادسية ، وهى اختها في العراق والنتيجة معلومة وما يوم حليلة بسر.

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعاً ولم يعللوا الفتح الاسلامى الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين جاء في الفصل الرابع للأستاذين ، غورد قرواد موبين ، و د بلانوف ،

« إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأماص لم يكونوا عصابات لا تحصى ولا تعد تدفقت على الشرق المتمدين فقد أحصى مؤرخوا العرب الجيش الأول للمسلمين في البرموك بثلاثة آلاف ثم ارسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل وأخيراً تام عددهم ٢٤ ألفاً وأما عدد الروم فقال العرب : إنه كان مائة ألف وقيل ١٢٠ ألفاً وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ولم يزد مؤرخو بني زطية على ٤٠ ألفاً



وعلى كل حال كان العدد الاكبر لاعداء العرب وهكذا في حروب فارس، (١).  
ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلى مساحتها واتساع رقعتها  
ومعظمها صحراء، ورمال وعساء، وأرض قاحلة جرداء، أما البلاد التي زحف  
عليها المسلمون ورموا فيها بأنفسهم، فهي من اخصب بلاد الله مستبصرة العمران  
مكتظة بالسكان وكانت خليتها تعسل حيناً بعد حين وتقطع بعوثاً أثر بعوث.  
وتدقق سبيل من الجيوش والمقاتلة وتأنيبهم الميرة من كل مكان لا تكاد تنتهي،  
وكان العرب الغرباء كنقطة مغشورة في بحار من الاعداء نازحين عن بلادهم،  
منقطعين عن مركزهم ولا يصلهم المدد الا بشق الأنفس وبعد شهور، لا يجدون  
من الميرة الا ما يتغلبون عليه وينزعون من ايدي اعدائهم انتزاعاً، فلو تطوعت  
جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس، ونفر جميع اهلها للجهاد في سبيل الله -  
على ان ذلك من المستحيل - لما وقعوا من العالم النصراني والمجوسي - وهما أكثر  
من نصف الأرض المعمورة - بمكان، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا انصف  
عشر عمران الجزيرة ٢.

أما العدد والعتاد، فكان العرب افقر فيها واقل منهم في العدد فلم تكن هناك  
جنود مرتزة، ولا جيوش منظمة تعبثها الحكومة وتسليحها من عندها، ثم تبعثها  
كاملة السلاح تامة الجهاز، انما كان متطوعون، يجهزون انفسهم، وينفرون شوقاً  
إلى الجهاد في سبيل الله ورجاء ثوابه، ومنهم من لا يجد راحلة ويلتمس عند غيره  
فلا يجد، فيقعد متلفاً على ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل الله؛ وقد انزل الله  
فيهم (ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه، تولوا  
واعينهم تغيب عن الذمع حزناً ان لا يجدوا ما ينفقون - : براءة).

وكان المسلمون يزدريهم اعيان الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم، وكانوا  
يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون. قال ابو وائل احد الذين شهدوا  
القادسية - كان الفرس يقولون للمسلمين : لا بد لكم، ولا قوة، ولا سلاح، ما جاء بكم  
ارجعوا قلنا : مانحن براجعين. فكانوا يضحكون من قبلنا، ويقولون : دوك دوك،

### وشبهونا بالمغازل (١)

قال ابن كثير : وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه الى كسرى بدعونه الى الله قبل الواقعة ، فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم ، وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأردبتهم على عرائقهم ، وسياطهم بأيديهم والنعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها (٢) :

ويقول د ماكس مايرهوف ، في تأليفة ( العالم الاسلامي ) .

يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن اعرابا منقسمين الى عشائر ، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة بهزموهم في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مرارا في الأعداد والعناد وكانوا يقاتلونهم وهم كتاب منظمة (٣) .

وما قيل في تعليل غلبة المسلمين ان العرب كانوا فاتحين في نظامهم الحربي على الروم والفرس في ذلك العصر . وكانت كنائهم أحسن تنظيما وتدريباً . وأفضل نظاما عسكريا وأكثر انقيادا لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفارسية وأن الفضل في انتصار العرب مع قلائهم وانكسار الروم والفرس رغم كثرتهم يرجع الى مراس العرب للقتال وضراوتهم بالحروب وولوعهم بالغزو والنهب ونشأهم الجاهلية الأولى . النشأة الحربية المحضة .

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيها وأكثر صوابا من التعليلات السابقة . ولكنك اذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطة كبيرة يغالط بها الكتاب الاوروبيون ويتعلمون بها . وقد يفهمون . وقد لا يفهمون

قد ثبت في تواريخ القرون الوسطى أن الروم ( وكذا الفرس ) كانوا راقين في نظامهم الحربي في ذلك العصر وقد بلغت الدولة البيزنطية في بداية القرن السابع

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤

(٢) ايضا ج ٧ ص ٤٢

(٣) حاضر العالم الاسلامي حواشي الأمير شكيب أرسلان ، ج ١ ص ٢٩

لمسبحي زهرها وأوج فتوحها الحربية . ففي ذلك العهد حار الروم الفرس ورددوم على أعقابهم وجاسوا خلال الديار وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجلة غازيا منتصرا وبعد حرب دامية في ساباطوم معركة فاصلة في نينوا دخل دستجرد وتقدم إلى الملدائن وغرز علم الفتح الرومي في قلب فارس وذلك كله في سنة ٦٢٥ م . يعني قبل زحف المسلمين على الشام باثني عشرة سنة فقط ،

وقد أقادت هذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ ( الفريقيين ) الروم ( وفارس ) من جهة الحرب والتدريب كثيرا ، وقد استفاد الفريقيان أساليب جديدة للقتال وحذكة وحسن بلاء في الحرب وتعلم كل فريق منها ومن الآخر كما كان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطى .

وقد اعترف جيون مؤرخ رومة الكبير بفضل الروم على العرب في الحروب ونظامها فقد قال في كتابه ( المجلد الخامس ص ٤٧٨ ) .

« أنا ألا حظ هنا وسأكرره مرارا أن هجوم العرب وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان الذين كانت لهم رجاله قوية مستحكمة ، كانت القرية العسكرية للعرب مركبة من فرسان ورماة وكانت الحرب التي قد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة إلى عدة أيام . »

أما ما قيل من مراس العرب للقتال وتدريبهم عليها بفضل حروبهم القبلية التي كادت تكون مستمرة ونمكتهم من الانتصار على الروم والفرس فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكن بها العرب من قهر الامبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية وقد خضع العرب مع هذا كله للحبشة ولفارس في جنوب العرب وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه على مكة وأن الله هو الذي تولى حراسة بيته وكفى قريشا القتال وجعل اصحاب الفيل كعصف مأكول ولماذا لم يحسر العرب على الخروج من جزيرتهم وغزو البلاد وفتحها في هذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهم في خمود وخمول تام ؟ لماذا لم يهاجوا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بغير تراخ ؟ ولماذا البشوا الاحقاب والاجبال الطوال ، معكومين على رأس حجر بين الاسدين فارس والروم ،

كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار (١)

أما ما قيل عن النظام فلا نتكر حسن نظام العرب في حروبهم وغزواتهم وروح التعاون والتفاني والنفادى السارى في جنودهم والطاعة والالتقياد لامراء الجيوش وقوادها والتفانى والاستماتة في سبيل الله ولكن يعلم الخير أن النظام ليس شيئا صناعيا ميكانيكيا يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية وفنون حربية وقواعد رياضية ولو صفت الحجارة تصفيفا بديعا أو أقيمت العمدة والسوارى على نظام فنى رياضى كامل لم تنفع شيئا ، وقد قرأت في التاريخ أن الروم والفرس قد كانوا في بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم ويحفرون لهم في الارض لثلا يندحروا أو ينسحبوا من ميدان القتال ثم لا يغنى عنهم هذا شيئا ، فليس الشأن كله في النظام في الحرب إنما الشأن الكبير التأثير البالغ للروح والمبدأ والغاية التى يقاتل لاجلها الجنود وتمكنها من النفوس وهى منبع القوة الحارقة للمادة ومبعث الحماسة التى تهب العقول وسبب الفتح العظيمة التى يندش لها المؤرخون والفلاسفة .

وعن هذا المنبع نبحت في نفوس العرب الاولين الذين خرجوا لفتح العالم وفتحوا نصف الارض في نصف القرن .

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثل في التاريخ إن العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالة فبعثوا بعثا جديدا وخلقوا من جديد وانقلبوا في داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت وانقلبوا غير ما كانوا رأوا إلى العالم حولهم - وطالما رأوه في جاهليتهم بداهة واستغراب - فاذا الفساد ضارب أطنابه ، واذا الظلم ماد رواقه واذا الظلام يحيم على العالم كله وكل شيء في غير محله فقتوه وأبغضوه ، ورأوا إلى الامم وطوائف البشر حول جزيرتهم - وطالما رأوها بتعظيم وإجلال وغبطة وكبار - فاذا أنعام ودواب في صورة البشر (يا كلون كما تأكل الانعام والنار مشوى لهم) واذا صور ودمى قد كسبت ملابس الانسان فاستهانوا بهم وبماهم فيه من ترف ونعيم وزخارف وزينة وقرأوا قول الله تعالى (زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد

الله ليعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون )  
وعلموا أن الله قد ابتغىهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة  
العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام  
واورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم وارضا لم يوطؤها واستخلفهم في الارض  
ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : ( ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض  
ميرثها عبادي الصالحون ) وقوله ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات  
لنستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ولنمكن لهم دينهم الذي ارتضى  
بههم وليبدلنهم من خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ) وتعلقوا بقول  
نبيهم ﷺ .

( ان الله زوى لى الارض فرايت مشارقها ومغاربها . وان امتى سيلغ ملكها  
ماروى لى منها واعطيت الكنزين الاحمر والابيض (١)  
وقوله ( اذا هلك كدرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي  
نفسى يده لتنفق كنوزهما فى سبيل الله (٢)

وعرفوا أن الله قد ضمن لهم بالنصر ووعدهم بالفتح فوثقوا بنصر الله ووعد  
رسوله واستأنوا بالقلّة والكثرة واستخفوا بالخاوف والاختار وذكروا قول  
الله تعالى ( ان ينصر لم الله فلا غالب لكم وان يخذ لكم فن ذا الذى ينصركم من  
بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) وقوله ( وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن  
الله والله مع الصابرين )

وقد فطن بهذه الحقيقة بعض معاصرى المسلمين واعدائهم واهل النظر والتمييز  
فى ذلك العصر من الروم والفرس . فمن ذلك ما روى ابن كثير ان هرقل لما انتهى  
اليه خبر زحف المسلمين قال لاهل الشام ويحكم ان هؤلاء اهل دين جديد وانهم  
لا قبل لاحد منهم فأطبعونى وصالحوهم بما يصالحونكم على نصف خراج الشام ويبقى  
لكم جبال الروم وان اتم ايتم ذلك اخذوا منكم الشام وضيّقوا عليكم

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه الترمذى .

### جبال الروم (١)

أما عقيدة المسلمين أنهم مبعوثون إلى الأمم موكلون بإخراج الناس إلى عبادة الله وحده وأن الله متولى نصرهم ضامن بظفرهم فستلحه وتسليه في كل ما كان يصدر من المسلمين من كلام وفعال ومن ثقتهم وسكينة قلوبهم .

ومن ذلك ما روى أن الامراء لما كتبوا إلى أبي بكر وعمر في اليرموك يعلونهما بما وقع من الامر العظيم وما يقابلون خطر داهم وعدد لا قبل لهم به . كتب اليهم أن اجتمعوا وكونوا جندا واحدا وألقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتي مثلكم عن قله ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها (٢) :

ولما استشار عمر في أصحابه في سيره إلى العراق بوقعة نهاوند قال له علي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين إن هذا الامر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة هو دينه الذي أظهر وجنده الذي أعزه وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ فتحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده (٣) ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ثقة بنصر الله واعتمادا على موعوده . حتى أنهم خاضوا بخيولهم في دجلة وكانوا يتحدثون مطمئين كأنهم سائرين على البر . وكان منظر اغريا ، وجعل الفرس يقولون ديوان آمدند يعنون الجن والغفاريت ويقولون ديوانه ديوانه يعنون المجانين وكان الذي يسير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي لجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزم من الله عدوه . أن لم يكن في الجيش بنى أو ذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان : ان الاسلام جديد . ذلك لهم والله البحور كما ذلل ، لهم البر . أما والذي نفس سليمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان : لم يفرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئا (٤)

بعثت هذه العقيدة والنفيسة طمأنينة في أنفسهم وسكينة في قلوبهم وشجاعة

(١) و (٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٧

(٤) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٦

خارقة للعادة واستهانة بالعدد والعدد وعدم عبادة للمادة وعدم اتخاذ الأسباب أربابا وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين ويظفرون ويغلبون ببركة الاسلام فكانوا شديدي الاحتفاظ كثيرا للاعداد بها ، تمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، روى يونس عن ابن اسحاق : أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعرب ( والمسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف ) فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على معان لبتين ينظرون في أمرهم وقالوا نكتب الى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له قال : فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : يا قوم والله إن التي تكرهون التي خرجتم تطلبون الشهادة وما تقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما تقتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنا هم إحدى الحسين إمامهم وروا ما شهادة قال فقال الناس قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس (١) كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - من الفتوح العظيمة فإذا رأوا من ذلك شيئا قالوا ( هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ) .

جاء رجل الى أبي عبيدة يوم اليرموك فقال : إني قد تهيأت لأمرى فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم تقرئه عنى السلام وتقول يا رسول الله . إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا (٢)

وقد بلغوا في قلة الاهتمام بالعدد والاستخفاف بشأن العدو وكثرته حتى كأنهم من حديد والعدو من طين وخزف أو كأنهم مناجل والعلوج (٣) حقول ومزارع قد أينعت وحان حصادها .

قال المؤرخون لما أقبل خالد من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؟ فقال خالد : ويحك أنتخوفنى

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٢

(٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٢

(٣) الملج الرجل الضخم القوى من كفار المعجم وقد يطلق على الكافر ضموا

بالروم ؟ إنما فكثرت الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لابتعد الرجال والله لو ددت أن الأشقر برأ من توجهه وأنهم أضعفوا في العدد - وكان فرسة قد حفا واشتكي في مجيئه من العراق (١)

وقد ارتفع هؤلاء وعلت همهم وكبرت نفوسهم وعظم الدين والحقيقة والأخلاق في نظرهم حتى صغرت الدنيا وزخارفها في عيونهم وهان أهلها عليهم فكانوا يرون إلى أهبة الملوك ونخضة السلاطين وما فيه أغنياء هاتين المدينتين ومترفوها من الآثا والرياش وزخارف الدنيا كأنهم يرون إلى لعب الصبيان وكأنهم يرون الدمى والبناات المصنوعة من ورق أو قماش في مواكبها وزينتها لا يولهم شيء ولا يعظم في عينهم شيء .

أرسل سعد قبل القادسية ربهى بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزراى الحرير وأظهر البواقيت واللالى الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربهى بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه فقالوا له ضع سلاحك فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتونى فان تركتمونى هكذا وإلا رجعت فقال رستم انذروا له . فأقبل يتوكأ على رمح فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا له ما جاء بكم فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله . قالوا وما موعود الله ؟ قال . الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن يبقى فقال رستم قد سمعت مقالكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم كم أحب إليناكم يوماً أو يومين ؟ قال لا بل حتى نكتب أهل رأينا رؤساء قومنا فقال . ما سنلنا رسول الله صلى الله



عليه وسلم أن تؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث فانظر في امرك وامرهم  
واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل فقال أسيدهم انت ؟ قال لا ولكن المسلمون  
كأجسد الواحد يجهز أديانهم على أعلاهم فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال هل  
رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا معاذ الله أن تميل الى شيء  
من هذا وتدع دينك الى هذا الكلب أما ترى إلى نياحه ؟ فقال : ويلكم لا تنظروا  
إلى الثياب وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة إن العرب يستخفون بالثياب  
والأكل ويصنون الاحساب (١)

دخل المغيرة بن شعبة على رستم وقعد معه على السرير فتخروا وصاحوا فقال  
إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم فقال رستم صدق (٢)

وكان من أكبر أنصار المسلمين أخلاقهم العالية وسيرتهم الملكية فكانوا يمتازون  
بها ويعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا وكانت هذه الاخلاق طليعة جيوشهم تسخر لهم  
القلوب والنفوس وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم  
والذين كانوا يشهدونها ويجربونها كانوا يشهدون أن هؤلاء سيفلون ويملكون  
بالدنيا وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كما لفرق بين البهائم والملائكة .

روى أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة بسنده عن أبى إسحاق قال كان  
أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء فقال هرقل وهو  
على انطاكية لما قدمت منهزمة الروم ويلكم اخبروني عن هؤلاء القوم الذين  
يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم ؟ قالوا بلى . قال فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن  
أكثر منهم أضعافا فى كل موطن قال فما بالك تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم  
من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمنون بالمعروف  
وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزق ونركب  
الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط ونهى عما يرضى الله ونفسد  
فى الارض فقال . أنت صدقتى

وسأل هرقل هذا رجلا كان قد أسر مع المسلمين فقال اخبرنى عن هؤلاء

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

القوم فقال أخبرك كذا فك تنظر اليهم هم فرسان بالنهار ورجال بالليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بشئ ولا يدخلون إلا بسلام يقفون على من حاربوا حتى يأبوا عليه فقال . لأن كنت صدقتني للملك موضع قدمي هاتين (١)

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال . جئت من عند رجال دقاق يركبون خيولا عتاقا أما الليل فرهبان وأما النهار فرسان يرشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا لو حدثت جليستك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر قال فالتفت الى أصحابه وقال اتاكم منهم ما لا طاقة لكم به (٢) حيثهم هذه الاخلاق الى أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم حتى ان كان هؤلاء يؤثرونهم على بني جلدتهم وأبناء ملتهم ويتمنون لهم الظفر ويدفعون عنهم العدو ويتطوعون لمصلحتهم .

قال الثيلاذري في فتوح البلدان حدثني أبو حمص الدمشقي قال . حدثنا سعيد ابن عبد العزيز قال بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم اليهم بوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتهكم والدفع عنكم فأنتم على امركم فقال أهل حمص لو لايتكم وعداكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفع جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن تغلب ونجهد فأغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه وإلا فانا ما بقى على امرنا للمسلمين عدد فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنها وأخرجوا المقلسين (٣) ففتحوا وأدوا الخراج (٣)

هذا ولما طال على المسلمين الأمد وقست قلوبهم ونفسوا وتناشوا ما لاجله بعثهم الله على كثرة من الناس وتوافر من اعمم الارض وهو قوله تعالى ( كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتؤمنون بالله )

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٢

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦

(٣) نفس القوم استقلوا الولاية عند قسروهم بضرط الدف والغدا واستأفوا المهر

( ) فتوح البلدان ص ١٧ طبع بريل

ونسوا ما لأجله خرجوا من جزيبتهم يخرجون الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة حياة من لا يعرف نيبا ولا يؤمن برسالة ووحى ولا يرجو حساباً ولا يخشى معاداً وأشبهوا الأمم الجاهلية التي خرجوا يقاتلونهم بالامس عادوا فقلدها في مدنيها واجتماعها وسياستها وأخلاقها ومناهج حياتها وفي كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها وأصبحوا لا هم لهم ولا شغل إلا الأكل والشرب والتناسل وأصبحوا كرعابا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكهم وأمراؤهم جبارتها وفراعنتها وأغنيائهم مترفيها وأكابر مجرميها وكاد يسبق لجارهم لجارها ، تحاسد وبغضاء ومنافسة في السلطان وتكالب على حطام الدنيا وإخلاد إلى الترف والنعيم وإعراض عن الآخرة ، وسفك للدماء وهتك الأعراض وهضم للحقوق وغدر بالعهود والذمم وتعد عن حدود الله وإعانة للظالم وجنف في الحكومات والمظالم وتبذير لأموال الله وعموم الفواحش والمنكرات وابتداع للجرائم وابتداع في الجناية مما يحتاج بسطه إلى مجلدات ، فهانوا إذا على الله مع أسمائهم الإسلامية ورغم وجود الصالحين فيهم وظهور بعض الشعائر الدينية والواجبات الشرعية في بلادهم وهانوا على الناس رغم مملكتهم الواسعة وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنها العامرة ورغم تقدمهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة ، قتل إكرام الناس لهم وهيبتهم لإياهم وتجاسروا عليهم ؛ قال رتبيل ملك رنج وسجستان لرسل يزيد بن عبد الملك وقد جاءوا إليه يطالبونه بالخراج : ما فعل قزم كانوا يأتون خصاص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوض ، قالوا انقضوا قال : أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً ، ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الاتاوة شيئاً (١)

فإذا كان هذا في القرن الثاني فما ظنك بقرون بعده ١٢

حتى إذا بلغ السيل الزبى وتضاعف كل ما ذكرنا وأفسد المسلمون في الأرض بعد إصلاحها وآسفوا الله ، بعث عليهم عبداً له أولى بأس شديد لجاسوا خلال الديار ، سلط عليهم المغول والتتار أشقى الأمم وأخلمها وأجهلها وأوحشها ، فوضعوا فيهم

السيف وأجروا من دماهم سيولا وأنهارا وأقاموا من دعوهم صرورا وتلا لا وفعلوا بهم الأفاعيل وأجلسهم الخوف فتمكن من قلوبهم الوهل والجبن حتى أصبحوا لا يصدقون بهيمة التتر قال ابن الأثير: سمع عن بعض أكابرهم أنه قال من حدثك أن التتر أنزموا فلا تصدقه . قال ووقع رعبهم في قلوب الناس حتى كان أحدهم إذ لقي جماعة يقتلهم واحدا واحدا وهم دهشون ودخلت امرأة من التتر دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا ودخل واحد منهم دربا فيه مائة رجل فلما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفتاهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء ووضعته الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان . وحكى أن أحدهم أخذ رجلا ولم يجد ما يقتله به فقال له ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح فوضع رأسه وبقي إلى أن أتى التتري بسيف وقتله . قال ابن الأثير وأمثال ذلك كثيرة :

واليك ما قال ابن الأثير قبل أن يسرد وقائع هذه النازلة .

لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كآثارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأوخر أخرى فن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك قباليث أمي لم تلدني وباليثي مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عرفت الأيام والليالي عن مثلها . عمت الخلائق وخست المسلمين ، قلوبهم قال قائل إن أهل العالم منذ خلق لله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يداينها . . . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفتي الدنيا الخ ،

ولكن مثل هذه الحادثة لم تستطع أن تنبه المسلمين ولم يفيقوا من سكرتهم ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم وحق عليهم قول ربهم ( لعمر ك انهم لفي سكرتهم يعمهون ) وقوله ( قلولا اذ جائهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وذين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ) وقوله ( ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ) وما زالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهو وظلم حتى يقول ابن الأثير :

وقال الله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصره الدين بل كل منهم مقبل على الهوى ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو وقال الله تعالى : ( وانقوا فتنة لا تصين الذين ظالموا منكم خاصة ) .

وبما يجب ان يلاحظ القارىء ويعتبر به المعتبر ان المسلمين في هذه الظلمات التي غشيتهم والفتنة التي عمتهم كلها افاقوا سكرتهم واصلحوا شأنهم وأزاحوا العائل وصمدوا في وجه العدو واستزلوا النصر هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ولا يصدق الناس بانهم هزمهم فقد هزمهم جلال الدين خوارزمشاه ثلاث مرات وهزمهم الظاهر بيبرس غير ما مرة وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصفر . وقال السيوطى عن وقعة عين جالوت : ( فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون والله الحمد وقتل من التتار مقتله عظيمة وولوا الأدبار وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم (١) ) .

ولم يزد المسلمون الا ضعفا ولم يزد اخلاقهم على مر الايام الا انحطاطا وتدهورا ولا احوالهم وشؤونهم الا فسادا حتى اصبحوا أمة جوفاء لا روح فيها ولا دم . وكانوا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يورى الناس ويهول من بعيد ، اوكدوحة قد تأكلت جذورها ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد . واصبحت بلادهم مالا سائبا لا مانع له واصبحت دولهم فريسة لكل مفترس وطعمة لكل آكل وحق قول النبي ﷺ :

( يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الآكلة الى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل انتم يومئذ كثير وايكنكم غشاء كغشاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت (١) )

واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة حتى اغار عليهم في القرن الثامن عشر

(١) تاريخ الخلفاء رواه ابو داود عن ثوبان رضى الله عنه

المسيحي الامم الاوربية النصرانية الجاهلية. المتحضرة الوحشية الكاسية العارية (١)  
فسلموها مفاتيح ملكهم واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي منزلة أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم  
وشروا بلادهم بشن بخس دراهم معدودة وتطرعوا في جنود العدو يفتحون بلادهم  
للاجنبي على حسابهم

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيرا وأعرق اثرا وأبعد مدى من الهجوم  
الشرقي ( المغولي والتتاري ) فكاد يخدم كل جمرة في قلوبهم لم تخدمها العواصف  
طيلة هذه القرون وبقيت كامنة في الرماد تخبئ مرة وتلتب أخرى

فقتل عقلاهم عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين وقلوبهم فوجدوا ان  
أكبر منبع القوة والحياة هو ( الايمان ) وشهدوا ما فعل الايمان قديما وما اظهر  
من معجزات وخوارق وما هو خليق بأن يفعل فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين  
هما افكك بهم وأضر لهم من المغول والتتار ومن الوباء الفاتك . الاول : هو الشك  
وضعف اليقين الذي لا شيء . ادعى للضعف والجبن منه والثاني : ما نعب عنه بالذل  
النفسي وهو ان صار المسلمون يشعرون بالذل والهوان في داخل انفسهم وفي  
اعماق قلوبهم ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب واخلاق ويستحيون  
من انفسهم ويؤمنون بفضل الاوربيين في كل شيء ويعتقدون فيهم كل خير ولا  
يكادون يعترفون بنقص وعيبهم في ناحية من نواحي الحياة ولا يصدقون  
بانهم زامهم وفشاهم في ساعة من ساعات الدهر وإذا تمكن هذا الذل من نفوس امة  
فقد ماتت وان كسفت تراها تغدو وتروح وتاكل وتعيش .

وابتلى المسلمون في هذه المرة - بتأثير الحضارة الغربية والفلسفة الغربية بعبادة  
المادة وحب الدنيا والجري وراء النفع العاجل وتقديم المصالح الشخصية والمنافع  
المادية على المبادئ والاخلاق شأن الامم الاوربية الجاهلية فكانت هذه الاخلاق  
وهذه النفسية والتربية مانعا من الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته ومن تحمل المشاق  
وتحرم المرائر ومكابدة الأهوال والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح والعقيدة السامية

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين ، متور الذهن ، ولكن مظلّم الروح  
أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين قليل الصبر والجد ، ضعيف الإرادة  
والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بماجله ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية وبجاه  
وعزة وهمية ، ضعيف الثقة بنفسه وأمه ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلى غيره  
( وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب  
حسنة يحسبون كل صيحة عليهم )

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن  
الأتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم والتكفّف لسيهم  
والالتجاء في مواقع الخطر اليهم ، وأصفقوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ،  
والحياة للدين ، وأبدلوها بالوطنية العلية ، والجنسية الناعسة ، وأبدلوا جنونها الذي  
بعث الحكمة من مرقدها ، وأطلق العقل من إيساره ، والذي تمكن بما لم يتمكن منه  
العقل والم في آلاف من السنين ، أبدلوا هذا الجنون الحكيم بعقل ناقص عليل  
لا يعرف إلا الموانع والمراقيل .

وقد ظهر هذا التحول العظيم في العقيدة والنفسية والإفلاس في الروح والايان  
في شر مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعالم العربي في القرن الرابع عشر  
الهجري ، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع امام الزحف التتاري فضيحة  
للعالم الاسلامي في القرن الثامن فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية  
وتدافع عن وطن عربي اسلامي مقدس ، عن القبلة الاولى وعن المسجد الثالث الذي  
تشد اليه الرحال ، وعن جزيرة العرب والاقطار العربية التي أصبحت مهددة بالخطر  
الصيوني ، فكانت حرب فلسطين دفاعا عن حياة وشرف وعن دين وعقيدة ، وكان  
العالم العربي بأسره ازاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الانظار الى مسرح  
فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليرموك او وقعة مثل وقعة حطين . ولماذا  
لا ينتظرونها والامة هي الامة ، والعقيدة هي العقيدة مع زيادة فائقة في العدد والعدد ،  
فلماذا لا يتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذا لا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين ؟  
ولكنهم نسوا ما فعلت الايام وما فعلت التربية ، وما فعلت الدول والرعاية  
السياسية ، وما فعلت المادية بالامة العربية في هذا العصر ، لقد تقدم العرب

الى معركة اليرموك حقا ، ولكن بغير الايمان الذي تقدم به اسلافهم الى هذه المعركة في العصر الاول.

لقد تقدموا الى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين - لو ظفر العرب - ولكنهم تقدموا بغير الروح التي تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد : تقدموا بقلوب خاوية تذكر الموت ، وتحب الحياة ، واهواء متشتتة ، وكلمة متفرقة ، يريدون ان يربحوا النصر ولا يخسروا شيئا وان يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشيء . كل يعتقدان غيره هو المسئول عن الحرب وعن الغلبة والهزيمة ، ثم هم يقاتلون وحيلهم في يد غيرهم ، اذا ارخى قليلا تقدموا ، واذا جره تأخروا ، واذا قال حاربوا حاربوا واذا قيل اصطلحوا اصطلحوا وما هكذا يكتسب الظفر ويظهر العدو اوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا اتورد ياسعد الابل

وبقي العالم متطلعا الى ما قرأه في تاريخ الجهاد الاسلامي من روائع الايمان وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة والبسالة والبطولة والاستقبال للموت ، والتقى للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الاطاعة والايثار ، فلم ير من ذلك شيئا ، الا لمعات وإشراقات للايمان كانت تظهر من بعض المتطوعين في حرب فلسطين والاخوان المجاهدين ، قهقروا وتطوعوا للحرب بدافع الايمان ، والدفاع عن الاسلام ، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم الى ميدان الحرب ، فشرفوا الدين واربءوا القلوب ، واعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على ان الايمان لا يزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وان عنده من القوة والنفوذ والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ما ليس عند الدول الكبيرة المنظمة .

لقد ثبت بما ذكرناه في هذا الكتاب ، وما سردناه من الامثلة والاخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر - وما حرب فلسطين منا يعيد ان المد والجزر في تاريخ الاسلام واحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الايمان وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين وان منبع قوة هذه الامة في باطنها ، وهو القلب والروح ، فاذا عمر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وترك الروح التعاليم الدين والاخلاق الاسلامية ، وجاش الصدر بالحمية الديفية جيشان المرجل واخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية واعدوا للعدو ما استطاعوا ، وادركوا



ما عليه العالم من جور وظلم ومن جهالة وسفاهة وضلال في الدين والدنيا وعلوا  
أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام والعالم قد عاد جاهليا كما بدا ، ظهر  
الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، فأشفقوا عليه ورأوا أن العالم  
في حريق ولا ماء إلا عندهم فسعوا به يطفئون النار التي عمت الدنيا ونسوا في سبيل  
ذلك لذاتهم وتكدر عيشتهم ، وطار نومهم ، وجن جنونهم ، فعند ذلك يتحولون  
قوة خارقة للعادة لا يفلمها العالم ، ولو سمي بأمرة وجميع شعوبه وجنوده ودوله  
ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا ، ولقد سبقتم كلماتنا  
المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وأن جندنا لهم الغالبون ، ولا تهنوا ولا تحزنوا  
وأتمموا الأعلان إن كنتم مؤمنين .

